

الفصل الثامن

الغزوة الاستعمارية للمشرق العربي

- ١ - المجتمع العربي في المشرق .
- ٢ - الحركة القومية العربية .
- ٣ - الثورة العربية الكبرى .

١ - المجتمع العربي في المشرق

كان المجتمع العربي في أوائل القرن التاسع عشر مجتمعاً زراعياً يخضع لنظام إنتاجي من نوع خاص ، تجتمع فيه الملكية الجماعية السائدة في نط الإنتاج الآسيوي مع وجود الملكية الفردية السائدة في النظام الإقطاعي الغربي . وكان العثمانيون بعد فتحهم للمشرق العربي قد نقلوا ملكية جميع الأراضي العربية إلى السلطان العثماني ، وقاموا بتوزيعها على الفلاحين لزراعتها ، وأعطوهم فيها حق الانتفاع مقابل دفع ضريبتها ، ثم أحصوا القرى في كل بلد ، وقاموا بتقسيمها إلى إقطاعيات مختلفة الأحجام منحت على أساس طبقي للقواد وكبار الموظفين وحكام الآليات والألوية حسب أهميتهم ، بالإضافة إلى أفراد آخرين بصفتهم ملتزمين . ولم يكن منح هذه الإقطاعيات لأحد من هؤلاء يعني تملكه إياها ، بل يعني تفويضه في حق جباية الضرائب والعشور وسائر الرسوم من الفلاحين .

وقد بقي هذا النظام حتى أوائل القرن التاسع عشر حين كثر استبدال الإقطاعيين بالأراضي ، وأحجم الكثير عن دفع الأموال المترتبة عليها ، فضلاً عن انتقال كثير من الإقطاعيات والالتزامات ، مع مرور الزمن ، إلى ما يقرب من التملك الشخصي ، ولجوء كثير من الزعماء الإقطاعيين إلى شق عصا الطاعة ، وعدم أداء الخدمات المطلوبة منهم للدولة . فلجأت الدولة العثمانية ، في النصف الأول من القرن التاسع عشر إلى وقف الإقطاعيات التي توفي أصحابها أو انتهت مدة إقطاعهم ، وإدخال إيراداتها في الأوقاف العامة . فكان وقف هذه الإقطاعيات خطوة هامة في إلغاء النظام الإقطاعي في الدولة .

على كل حال ، فإن هذا الجانب من الأراضي كان ينحصر في أراضي

الدولة . وإلى جواره كان يوجد جانبان آخران : الأول ، يتمثل في الأوقاف في سوريا والعراق ومصر ، وهى أراضى محبوسة على المؤسسات الدينية والأغراض الخيرية أشبه بالملك الخاص . والثاني ، ويتمثل في الأراضى المملوكة ملكية فردية . ولكن هذه الملكية الفردية لم تكن تمثل علاقة إنتاج رئيسية في المجتمع ، وإنما علاقة إنتاج ثانوية .

ولم يكن هناك تناقض حضارى كبير بين المدن العربية والريف ، كما هو الحال في الغرب ، فلم تكن المدن تعدو أن تكون قرى ذات صبغة حضرية ، ومعظم سكانها يعيشون على الزراعة بطريقة مباشرة أو غير مباشرة ، وتخضع لسيطرة كبار الملاك وأصحاب الإقطاعيات والمليّمين ، الذين كانت إقامتهم الدائمة المفضلة في المدن .

وبرغم أن التجار لم ينجوا من ابتزاز الطبقة الحاكمة ، فإنهم كانوا مع الكتبة والعلماء يكونون طبقة وسطى بإمكانها الضغط على الإدارة . وقد أمكن لكثير من أسر التجار حتى في القرن الثامن عشر أن تحصل على ثروات ضخمة ، وأن تصاهر البكوات والأرستقراطية العسكرية . على أن التجارة الخارجية لم تكن تعود بفائدة كبيرة على البلاد العربية لسببين :

الأول : أن الواردات كانت تتكون من المواد الصناعية والبضائع الكمالية للأغنياء ، على حين كانت الصادرات تتكون من المواد الخام غير المصنوعة .

ثانيا : أن التجارة الخارجية كان يقع معظمها في أيدي الأوروبيين والليفانتين واليهود ، وليس في أيدي العرب . وهذا يفسر ضعف البورجوازية العربية ، وعجزها عن القيام بدور مثيلتها في البلاد الأوروبية .

وقد خضع المجتمع العربى في المشرق لعاملين متناقضين ، كان لهما تأثيرهما في تأخر الوعي القومى بالمعنى الحديث ، في مواجهة السيطرة العثمانية .

العامل الأول : وهو عامل توحيد ، ولكنه توحيد على نطاق أوسع من النطاق القومى ، ويتمثل فى الفكرة الإسلامية .

والعالم الثانى : وهو عامل تفتيت ، ويتمثل فى نظام الطوائف .

وبالنسبة للعامل الأول ، ففى ذلك الحين كان المفهوم الإسلامى للجماعة يتغلب على كل مفهوم قومى ، وكان العالم العربى فى المشرق يعيش بالتالى فى ظل أيديولوجية الجامعة الإسلامية ، وكان الإحساس بالقومية العربية معدوماً ، لأن لفظة « عربى » ذاتها كانت ذات مدلول يقتصر على العناصر البدوية فى شبه الجزيرة .

أما بالنسبة للعامل الثانى ، فعلى الرغم من أن المفهوم الإسلامى للجماعة كان يوحد العالم العربى ، فإن هذه الوحدة لم تكن وحدة عضوية ، بل وحدة حضارية . فقد كان هذا المجتمع العربى مفتتاً إلى وحدات اجتماعية صغيرة تحكم نفسها بنفسها ، ولا يخضع أفرادها خضوعاً مباشراً للحكومة . وهذه الوحدات الصغيرة هى ما تعرف بالطوائف . ذلك أن كل من كانوا يباشرون أى مهنة ، كانوا ينتظمون فى طوائف معترف بها ، لها لوائح منظمة ، ورؤساء منتظمون ، ومقادير معينة من الضرائب المفروضة عليها . وهذه الطوائف كانت هى المجال الذى يمارس فيه المواطن العربى حق المواطنة ، ويجد فيه التعبير عن غرائزه الاجتماعية والاطمئنان إلى مكانته فى النظام الاجتماعى ، ويأمن فيه من تدخل حكامه السياسيين ، الذين كانوا بوجه عام يحترمون استقلال الطوائف . ولا يتدخلون فى شئون أفرادها إلا بشكل طفيف وبشكل غير مباشر ، عن طريق شيخ كل طائفة ، الذى يدير شئونها الداخلية ، ويمثل همزة الوصل بين الطائفة والإدارة . ومما كان ينمى الوظيفة الاجتماعية للطوائف ، ارتباط معظمها بإحدى الطرق الصوفية ، وتواجدها فى وحدات سكنية ذات كيانات مستقلة هى المحارات .

وإلى جانب هذا الانقسام إلى طوائف ، الذى كان مركزاً فى المدن ، كانت

هناك انقسامات أخرى على أسس مختلفة ، هي الانقسامات إلى بدو ، وحضر وفلاحين ، وإلى مسلمين ، وأقباط ، ويهود . وهذه الانقسامات كانت تفصل بينها حواجز جامدة لا تقل قوة عن الانقسامات على أسس اقتصادية .

على أن هذا المجتمع العربي ، بصفاته الوحشية والتفتيتية ، التي كانت تحول دون نمو الشعور القومي وظهور الفكرة القومية بمعناها الحديث ، لم يلبث خلال القرن التاسع عشر أن أخذ يعاد تركيبه من جديد على أساسين : -

الأساس الأول طبقي .

والأساس الثاني قومي .

وبالنسبة للأساس الأول ، فإن تدفق رأس المال على المنطقة العربية بعد منتصف القرن التاسع عشر ، وما تبعه من نشأة المشروعات الحديثة ، وتقدم وسائل النقل والمواصلات ، وازدياد النشاط التجاري ، قد أدى إلى نتيجتين :

النتيجة الأولى : تضائل دور الحرف اليدوية في المدن تدريجياً إلى جوار الإنتاج الآلي الحديث ، وتضائل دور الطبقة الحرفية القديمة بالتالي ، بما يعنيه ذلك من تدهور نظام الحرف .

والنتيجة الثانية : ظهور طبقة بورجوازية حديثة تدريجياً تختلف عن طبقة الحرفيين ، ذات صبغة كومبرادورية ، أخذت في الاستقلال تدريجياً عبر صراعات محتدمة بينها وبين الرأسمالية الأجنبية . يقول لويس فارلي Farelly الذي كان يقيم في بيروت سنة ١٨٦٣ : « منذ سنوات قليلة ، كان التجار الكبار من الأجانب . أما الآن فإنهم من اللبنانيين ، ويستقبلون في بيروت السفن المحملة بالبضائع باسمهم » .

ومع نشأة الطبقة البورجوازية ، نشأت طبقة برولتارية جينية تتناقض

مصالحتها مع مصالح الطبقة البورجوازية . وبذلك أخذ المجتمع ينقسم إلى طبقات اقتصادية . ومع أن هذا التغيير كان بطيئاً ومحدوداً ، واستغرق وقتاً طويلاً ، فإنه على كل حال شهد بداية تحول المجتمع العربي من مجتمع طوائف إلى مجتمع طبقات .

أما بالنسبة للأساس الثانى . وهو الأساس القومى ، فقد ساعد على قيامه - إلى جانب العوامل السابقة - العوامل الآتية :

أولاً : التطور الذى تعرض له التكوين الاجتماعى للجيش العربى ، فقد كانت هذه الجيوش تتكون من الممالك حتى أواخر القرن الثامن عشر ، ثم أخذ استقدام الممالك يبطل تدريجياً تحت عوامل عديدة ، أهمها : الدعوة إلى محاربة الرق التى أخذت تبرز من أواخر القرن الثامن عشر ، وتقوى على طول القرن التاسع عشر ، حتى انتهت بإبطاله نهائياً ، إلا فى مناطق محدودة . ثم عدول السلطة العثمانية وعدول حكومات الولايات العثمانية الممتازة عن استقدام الممالك ، لثبوت كونهم مصدراً للشغب والاضطراب والنهب ، وعجزهم عن مجاراة النظم العسكرية الحديثة ، فضلاً عن أن تكوين جيوش كبيرة من الممالك والمرتقة يتطلب نفقات جسيمة . وبظهور الجيوش التى يتألف سوادها الأعظم من أبناء الأوطان العربى ، برزت الصبغة القومية ووضحت مدلولات الأمة والقومية .

ثانياً : استقرار المجتمعات العربى تدريجياً مع اختفاء الهجرات وحركات العشائر والقبائل التى كانت تطيح بالسكان وأهل الزراعة خاصة بهم ، وكانت البلاد العربى عموماً ، والعراق وسوريا خصوصاً ، تتعرض لهجرات واسعة النطاق ، خصوصاً فى الأزمنة الحديثة ، كما حدث من حركات شمر وعززة نحو بادية الشام والعراق فى القرنين السابع عشر والثامن عشر . ولكن فى القرن التاسع عشر أخذت تقل هذه الحركات حتى أصبحت قاصرة على الحركات الموسمية من مرعى إلى مرعى ، وأخذت القبائل فى الاستقرار منذ منتصف القرن التاسع عشر .

ثالثاً : ظهور أنظمة حكم مستقرة في الأقطار العربية بعد أن كان الحكم واقعاً في أيدي المغامرين من المماليك وأصحاب العصبيات . ومن أمثال هذه الأنظمة المستقرة ما أقامته السلطة العثمانية في سوريا من حكومات بعد جلاء القوات المصرية في ١٨٤٠ - ١٨٤١ ، وفي بغداد يعد عزل داود باشا آخر الباشوات المماليك ، وفي طرابلس الغرب بعد عزل القرامنلية في عام ١٨٣٤ ، ثم ما قام في الولايات الممتازة ، كمصر وتونس . ومع هذه الأنظمة المستقرة تحددت حدود الأوطان العربية ، وتبينت معالمها ، واكتسبت كيانات ، وظهرت الجماعات السياسية المنظمة والعمل السياسي المنظم .

رابعاً: غزو الفكر القومي الليبرالي - وقد وفد هذا الفكر من مصدرين :

المصدر الأول : الثورة الفرنسية

والمصدر الثاني : الثورة الأمريكية .

وبالنسبة للمصدر الأول : فإن أكثر الذين أقاموا من العرب في فرنسا في النصف الأول من القرن التاسع عشر ، عادوا وفي جعبتهم آراء جديدة تتناقض مع الآراء السائدة القديمة التي اعتمدت الإسلام أساساً لبناء المجتمع ، ولا ترى من جامعة تجمع أفراد الأمة سوى الجامعة الإسلامية - وهذه الآراء التي عادوا بها كانت عن المواطنة والحرية والدستور والوطنية .

وفي لبنان بصفة خاصة لعب المصدر الثاني ، وهو الثورة الأمريكية ، دوراً لم يتضح في مكان آخر من العالم العربي ، بسبب الجماعات التبشيرية التي وفدت من الولايات المتحدة في مطلع القرن التاسع عشر ، لتعمل مع الجماعات التبشيرية القومية .

وقد تصادف ورود هذه الآراء الحديثة في وقت كانت أكبر قوة إسلامية في العالم في ذلك الحين ، وهي الدولة العثمانية ، تتدهور تدهوراً حقيقياً ، وتتدهور معها ما تمثله من آراء ونظم وحكم ومبادئ .

على أن هذا الشعور القومي لم يتبلور في شكل « عربي » في ذلك الحين إلا في المنطقة التي تشمل اليوم : العراق وسوريا ولبنان وفلسطين والأردن والحجاز ، أى في الأجزاء الشرقية فقط . في حين اتخذ في مصر والجناح الغربي للعالم العربي في شمال أفريقيا شكلا يرتبط بحدود الوطن ، لأسباب فرضتها ظروف حركات التحرر الوطني في هذه البلاد الأخيرة ضد الاستعمار الغربي ، والتناقضات الطبيعية الحادة بين خصائص كل شعب وخصائص المستعمر الذي كان يختلف من بلد إلى بلد . في حين كان هذا التناقض في الجناح الشرقي يخفى لحد كبير بسبب استمرارية هذا الجناح برمته تحت السلطة العثمانية دون تغيير ، واستمرار السياسة الإسلامية للسلطة العثمانية .

وهذا يفسر كيف أن الشعور القومي في هذه المنطقة لم ينشأ إلا كرد فعل للشعور القومي الذي حدث في السلطنة العثمانية ، واتخاذ شكل محاولة تترك العرب وحملهم على نسيان لغتهم وتاريخهم ليصبحوا جزءاً من تركيا الطورانية . فمنذئذ برز التناقض بين خصائص شعوب هذه المنطقة وخصائص الأتراك ، على نحو شبيه بما حدث في مصر والجناح الغربي للوطن العربي . ولما كانت اللغة هى أبرز الملامح القومية لأى شعب من الشعوب ، فهنا أخذ الشعور القومي يتبلور في شكل حركة قومية عربية في مواجهة القومية التركية .

٢ - الحركة القومية العربية

عبرت الحركة القومية العربية عن نفسها في ثلاثة اتجاهات فكرية رئيسية ،
تتدرج صيغها من الإسلامية إلى القومية ، وهى :

١ - الاتجاه إلى إقامة خلافة عربية : وقد نادى به عبد الرحمن الكواكبي الذى سجل آراءه في كتابيه المشهورين « أم القرى » ، « وطبائع الاستبداد » . ولا يعد الكواكبي قومياً إلا من هذه الوجهة ، وهى أنه كان يميز بين المسلمين العرب والمسلمين غير العرب تمييزاً دقيقاً ، وتأكيداً الشديداً على المكانة الخاصة التى يجب أن يحتلها العرب فى الإسلام بفضل لغتهم وشرف نسبهم ، ودعوته إلى نقل الخلافة من آل عثمان إلى العرب ، ومن شاطئ البوسفور إلى مكة ، على أساس فضل العرب وتفوقهم على الأتراك .

٢ - الاتجاه إلى الاستقلال عن الدولة العثمانية : وكان موجوداً فى المسيحيين اللبنانيين بصفة خاصة ، ويطالب بتحرير لبنان من الحكم التركى . ويرجع السبب فى ذلك إلى افتقار المسيحيين إلى شعور الانتماء للإمبراطورية العثمانية ، وإحساسهم بالغربة فيها ، على العكس من المسلمين الذين كانوا يرون فى الإمبراطورية العثمانية إمبراطورية إسلامية ، ويشعرون أنها إمبراطوريتهم . هذا فضلاً عن أحداث سنة ١٨٦٠ التى أدت إلى منح لبنان نظاماً ممتازاً قائماً على أساس واسع من الاستقلال .

وقد عبر هذا الاتجاه عن نفسه أول ما عبر فى « جمعية بيروت السرية » التى شكلها فى عام ١٨٧٥ خمسة من شباب الكلية السورية البروتستانتية فى بيروت ، وكانوا جميعاً من المسيحيين ، وقد شعروا بأنه لن يتيسر لهم تحقيق

مأربهم إلا بإشراك المسلمين والدروز معهم ، ووجدوا في العروبة قاسماً مشتركاً بينهم وبين الإسلام ، وبذلك أمكنهم بعد مدة إدخال اثنين وعشرين عضواً آخرين ينتمون إلى الطوائف المختلفة ، وأنشأوا فروعاً لهم في دمشق وطرابلس الشام وصيدا . وبذلك تكونت أول جبهة عربية موحدة تقوم على فكرة العربية .

وقد تضمنت النشرات الثورية التي أصدرتها الجمعية في بيروت عام ١٨٨٠ برنامجاً اشتمل على أهداف الجبهة ، وينص فيما ينص على : منح الاستقلال لسوريا متحدة مع لبنان ، والاعتراف باللغة العربية كلغة رسمية للبلاد . وقد ناشدت الناس أن يذكروا أمجادهم الغابرة ، ويطردوا الأتراك من الأرض العربية ، ويتحرروا من فساد الحكم التركي . وقد استمر نشاط هذه الجمعية السرية حتى عام ١٨٨٢ أو ١٨٨٣ حين اعتبرت نفسها جمعية منحلة .

كان برنامج جمعية بيروت السرية في عام ١٨٨٠ ، أول برنامج يدعو إلى تأليف دولة مستقلة على أساس قومي . ولكنه كان سابقاً لعصره ، فلم يكن له نتيجة ملموسة أو ظاهرة ، وإن بقى أثره كامناً في الزوايا الخفية للوعي العربي العام .

وفي عام ١٩٠٤ قام نجيب عزورى ، وهو عربي مسيحي ظهر نشاطه في أواخر عهد عبد الحميد ، بتشكيل جمعية في باريس عرفت باسم « رابطة الوطن العربي » ، غايتها تحرير بلاد الشام والعراق من سيطرة الترك . وقد وجهت هذه الجمعية عدداً من النداءات الملتهبة إلى العرب تحضهم على الثورة . وفي سنة ١٩٠٥ أصدر كتاباً باللغة الفرنسية عنوانه « يقظة الأمة العربية » وجه فيه بياناً شديداً إلى الدول الكبرى أكد فيه رغبة العرب ، الذين يعون أنهم أمة واحدة يوحد بينها التاريخ والشعور الوطني ووحدة العرق - في الانفصال عن الأتراك . ويطالب بتأسيس دولة عربية مستقلة « من وادى دجلة والفرات إلى السويس ، ومن البحر المتوسط إلى بحر عمان ، تكون ذات صبغة علمانية .

وتأسيس دولة مستقلة أخرى ذات طابع ديني تتكون من ولاية الحجاز بحدودها في ذلك الحين ، مضافاً إليها مقاطعة المدينة ، ويكون حاكمها في الوقت نفسه خليفة للمسلمين ، وبذلك يتم فصل الدين عن الدولة . على أن نشاط عزورى لم يترك تأثيراً في الحركة القومية بسبب صدوره من عاصمة أجنبية وبلغة أجنبية .

٣ - كان الاتجاه الفكرى الثالث : هو الاتجاه الذى يطالب بالإصلاح والاستقلال الذاتى فى إطار الإمبراطورية العثمانية . وكان هذا الاتجاه هو الاتجاه الرئيسى فى الحركة القومية العربية لعدة أسباب ، أهمها : أن التاريخ العثمانى كان يبدو فى عين العرب المسلمين فى ذلك الحين تنمة للتاريخ الإسلامى العام . فقد كانت الدولة العثمانية دولة إسلامية بكل معنى الكلمة ، وكانت تعامل المسلمين من العرب معاملة تختلف عن معاملتها للمسيحيين فهم يدعون إلى الخدمة العسكرية ويشتركون فى حروب الدولة وانتصاراتها وهزائمها ، بينما كان المسيحيون العرب يعيشون على هامش حياة الدولة ، شأنهم فى ذلك شأن سائر العناصر المسيحية الأوروبية التابعة للسلطة .

ثانياً ، أن الدولة العثمانية كانت ، فى نظر قادة الفكر والزعماء العرب من المسلمين ، هى الدولة الإسلامية القوية الرحيدة القادرة على التصدى لأخطار الغزو الاستعماري الأوروبي ، ومن ثم فإن الانفصال عنها يؤدى فى نظرهم إلى ضعفها واقتسام البلاد العربية بين الدول الاستعمارية .

وقد عبر هذا الاتجاه عن نفسه فى البداية فى شكل مهاجمة مساوىء الحكم التركى ، والمطالبة بالإصلاح فى البلاد العربية الواقعة تحت حكم الاتراك . ولما كانت فكرة الانفصال عن الدولة العثمانية غير قائمة كما ذكرنا ، فقد كان من الطبيعى أن يشترك عدد كبير من أنصار هذا الاتجاه فى العمل مع أحرار الترك المطالبين بالإصلاح . فقد تكونت جمعية سرية فى دمشق مؤلفة من أعضاء عرب وترك ، هدفها السعى للقضاء على استبداد السلطان عبد الحميد ، وكان لأفراد

هذه الجمعية اتصال سرى بقيادة حركة تركيا الفتاة ، « على أساس العمل على ابلاغ عرب الدولة حقوقهم ضمن الرابطة العثمانية » .

وفي سنة ١٩٠٣ تكونت « حلقة دمشق الصغيرة » ، لمطالبة الدولة العثمانية باتخاذ نظام مركزي لها يضمن للعرب حقوقهم في الحكم ، ويجعل لغتهم في الولايات العربية لغة رسمية في مدارس الحكومة ودواوينها ومحاكمها .

وفي سنة ١٩٠٥ تألفت « جمعية النهضة العربية » السرية ، في اسطنبول ، على أن يكون مركزها الثابت في دمشق ، لبث فكرة القومية العربية . وفي مصر أنشأ الزعماء العرب « جمعية الشورى العثمانية » في ١٨٩٧ ، التي كان هدفها معارضة استبداد عبد الحميد ومحاولة تغيير شكل الحكومة إلى النظام النيابي . وكان للجمعية فروع في أنحاء الامبراطورية العثمانية ، وتطبع منشوراتها باللغتين العربية والتركية .

وقد اشتد هذا المفهوم القومى للاستقلال بعد نجاح « جمعية الاتحاد والترقى » في الوصول إلى الحكم وسقوط عبد الحميد - وذلك كرد فعل لسياسة التتريك التي اتبعها الاتحاديون ، وظهور فكرة الجامعة الطورانية . فقد تجاوز هذا المفهوم مفهوم الاصلاح الدستوري ، بعد أن ثبت أن علة الوضع ليس هو الظلم وفساد الادارة ، وإنما هو نظام الحكم نفسه . وتألفت في الفترة من ١٩٠٨ - ١٩١٣ عدة جمعيات علنية وسرية أهمها ما يلي :-

الاتحاد العربي ، وهي جمعية علنية تأسست في « فروق » عام ١٩٠٨ ، ومؤسسوها جماعة من الجالية العربية في تلك العاصمة . وكان برنامجها يقوم على النهوض بالعرب ، والمحافظة على حقوقهم . وقد أغلقت الحكومة أبوابها عند خلع السلطان عبد الحميد ، كما ألغت الجريدة التي أصدرتها .

المنتدى الأدبي : وهو ناد علني تأسس في فروق أيضاً في خريف عام ١٩٠٩ .

وعلى رأسه عبد الكريم قاسم خليل ، وكان هذا النادي يعمل في الشؤون الأدبية والثقافية في الظاهر ، وبالشؤون القومية في الباطن . وقد أصدر مجلة تعبر عن أهدافه باسم « لسان العرب » أولاً ، ثم باسم « المنتدى الأدبي » ثانياً . وقد أغلق الترك أبوابه في عام ١٩١٥ بعد أن أثر تأثيراً كبيراً في الحركة القومية .

العربية الفتاة : وهي جمعية سرية تأسست في باريس في ١٤ نوفمبر ١٩٠٩ وكان مبادئها القومية ، الذي يقسم عليه العضو ، هو « بذل كل جهد لإيصال الأمة العربية إلى مصاف الأمم الراقية الحرة المستقلة الكبرى » . وقد التحق بها قبل الحرب العالمية الأولى نحو ستين عضواً . والتحق بها أيام الحكومة العربية الفيصلية في سوريا ثمانون عضواً . وقد برز من أعضائها أكبر الشخصيات الوطنية التي أدارت شؤون هذه الحكومة العربية ، كما أدارت شؤون حكومة العراق أيضاً بعد أن أصبح فيصل ملكاً عليها .

الجمعية القحطانية : وهي جمعية تأسست في عام ١٩٠٩ أو ١٩١٠ ، وهدفها إيقاظ العرب من سباتهم وتذكيرهم بماضيهم المجيد وكيانهم القومي الحاضر ، وحققهم في المطالبة بما لهم من حقوق في الدولة . وظلت تقوم بعملها السري حتى قامت الحرب العالمية الأولى . وقد دخل معظم أعضائها إما في حزب العهد ، أو في جمعية العربية الفتاة .

حزب اللامركزية في مصر : وهو حزب علني تأسس في عام ١٩١٢ في القاهرة من الشاميين المقيمين في مصر ، وكان يهدف إلى جعل الإدارة الحكومية في ولايات الدولة العثمانية قائمة على أساس اللامركزية ، وأسس فروعاً في العراق . وقد عدّه الأتراك في أثناء الحرب العالمية الأولى من الأحزاب الثائرة على الدولة .

الجمعية العمومية الإصلاحية : وهي جمعية علنية تأسست في بيروت في يناير سنة ١٩١٣ ، وارتكزت على اللامركزية أساساً للمطالب الإصلاحية .

وعندما أحدثت جمعية الاتحاد والترقى انقلاباً حكومياً في العاصمة ، سارعت إلى حل الجمعية ، مما أثار استياء شديداً عم الولايات العربية كلها .

حزب العهد : وهو حزب سرى عسكري تأسس في الآستانة في عام ١٩١٣ ، وعلى رأسه عزيز المصري . وقد تألف من العناصر العسكرية العراقية والشامية ، وأسس له فروعاً في المدن الكبرى في الشام والعراق . وهدفه الحصول على إدارة مركزية أو استقلال داخلي للبلاد العربية في إطار الدولة العثمانية . وقد اشترك بعض أعضائه في الثورة العربية الكبرى في الحجاز ، ثم كان منهم أركان الجيش السوري في أيام الحكومة العربية في دمشق ، واشترك بعضهم في الثورة العراقية ، وبعضهم في الثورة السورية ، وكان بينهم أركان في الوزارات العراقية والجيش العراقي بعد أن أصبح فيصل ملكاً على العراق .

وإلى جانب هذه الجمعيات ، تأسست « جمعية البصرة الإصلاحية » ١٩١٣ ، « والعلم الأخضر » ، « والنادى الوطنى العلمى » في بغداد .

وجميع هذه الجمعيات - كما رأينا - كانت تطالب بمزيد من الاستقلال للعرب ، والاعتراف بأمة عربية واحدة ذات كيان قومى ، ولكن دون أن يكون هذا الكيان منفصلاً تمام الانفصال عن الدولة العثمانية .

المؤتمر العربى الأول فى باريس ١٩١٣ :

على كل حال فقد تبلورت اتجاه هذه الجمعيات فى أول مؤتمر عربى عقد فى باريس فى الفترة من ١٨ - ٢٣ يونيو ١٩١٣ ، ودعت إليه الجالية العربية فى باريس بالتعاون مع حزب اللامركزية فى القاهرة . وكانت أهم مسألتين فى جدول الأعمال هما : حقوق العرب فى الدولة العثمانية ، والإصلاح الإدارى على أساس اللامركزية . ولم يبحث المؤتمر قضية الانفصال ، على أساس أن « الأمة

العربية لاتريد إلا أن تستبدل بشكل الحكم الفاسد الذى يكاد يودى بالدولة حكماً يقوم على قاعدة اللامركزية ، وإلا حكومة عثمانية ، لتركية ولا عربية ، يتساوى فيها جميع العثمانيين فى الحقوق والواجبات » . على أنه أكد ، أكثر مما أكدته الأحزاب والجمعيات التى تألفت قبله ، على أن العرب (دون إبراز حدود الكلمة) أمة مستقلة وأمة ذات ماض خالده ومستقبل مرجو الخير ، وأنه إذا كانت اللامركزية هى الوسيلة الوحيدة التى رآها المؤتمر ضماناً لحقوق العرب ومصيرهم ، فإنه إذا لم ينجح هذا النظام ، فإنهم يكونون أحراراً فى اختيار أى مطلب آخر (وقد عنوا بذلك الاستقلال التام ، تلميحاً دون تسمية) .

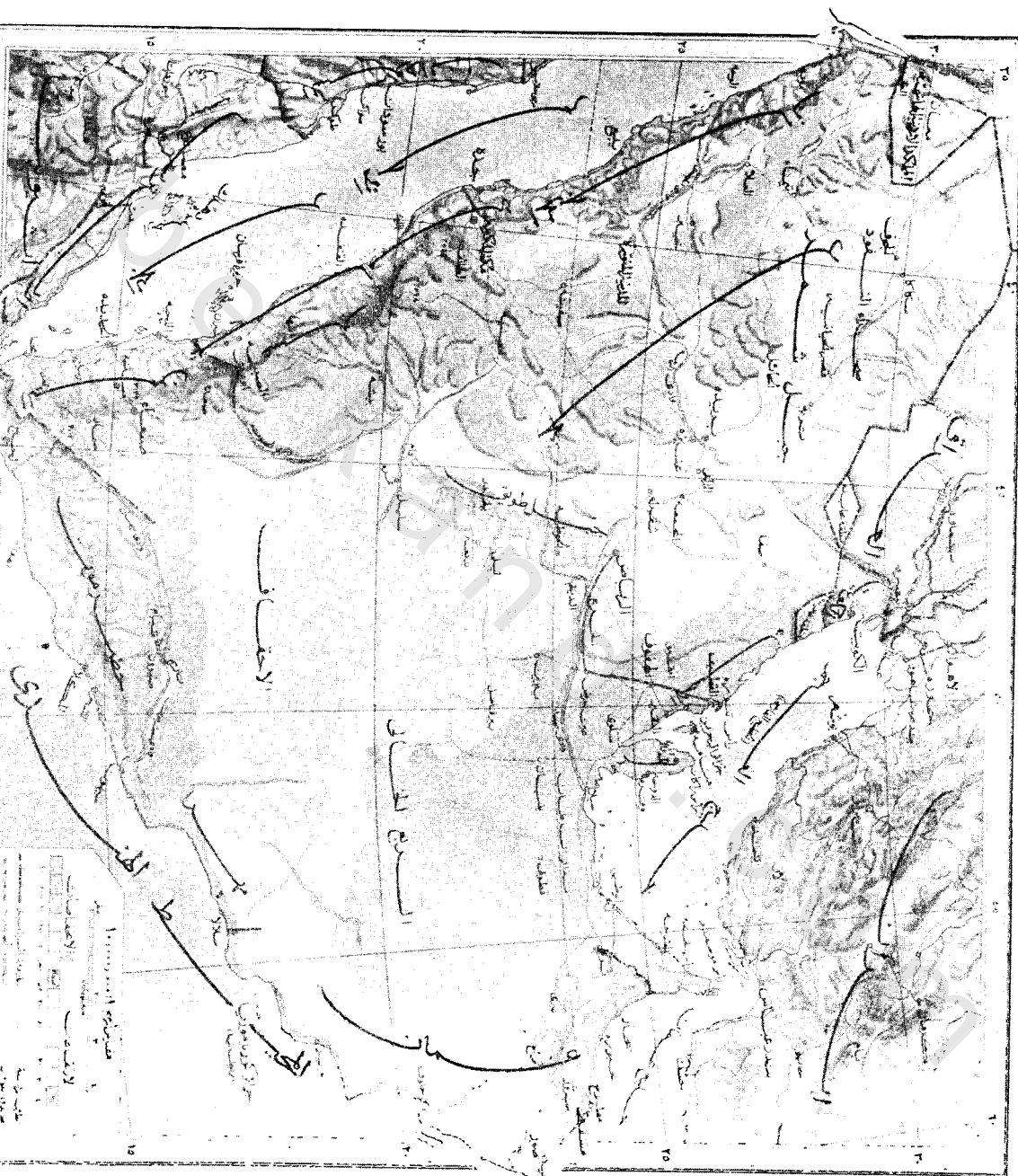
وقد اضطرت حكومة الاتحاد والترقى إلى التوصل بالفعل إلى اتفاق مع زعماء المؤتمر تمنح بموجبه الولايات العربية جميع المطالب التى تقدمت بها ، وإجراء الإصلاح على قواعد اللامركزية الإدارية . ولكن الروح القومية التركية أخذت تعبر علناً عن عدائها الشديد لكل ماهو عربى ، مما أوقع العداوة مرة أخرى بين العرب والأتراك وجاءت ظروف الحرب العالمية الأولى ليتخذ منها الاتحاديون فرصة لتصفية القوى القومية ، وتنفيذ سياسة التتريك ، ولعب حكم جمال باشا السفاح فى سوريا دوراً حاسماً فى دفع الأحداث إلى صدام محقق بين القومية العربية والقومية التركية . وهو الصدام الذى تمثل خير تمثيل فى الثورة العربية الكبرى .

٣ - الثورة العربية الكبرى

بعد أن قطع الوطنيون العرب كل أمل في إمكانية التفاهم مع الأتراك ، لم يروا بداً من الثورة . ولكن لما كانت تنظيماتهم محدودة الانتشار حديثة العهد ، فلم يكونوا لذلك قادرين على عمل حاسم إلا بالاعتماد على حليف ، وقد تمثل هذا الحليف في شخص الشريف حسين وأبنائه وزعماء القبائل التي انضمت إليه .

وكان الشريف حسين قد ولى إمارة مكة في عام ١٩٠٨ بعد استيلاء الاتحاديين على الحكم . وكان منذ ولايته قد أخذ يعمل على تقوية مركزه باستعادة الامتيازات التي منحها السلطان سليم الأول لأمرء مكة ، وخولهم بموجبها الهيمنة على شئون الحجاز والإشراف على الحج - وكان أسلافه قد أهملوا التمسك بها . وفي الوقت نفسه أخذ يبدي اعتراضه على مد سكة حديد الحجاز من المدينة إلى مكة ، لأنه كان يخشى أن يؤدي نجاح الاتحاديين في تنفيذ المشروع إلى سيطرتهم المباشرة على الحجاز . ومن هنا أخذ الخلاف يدب بين الطرفين . ووجد الشريف حسين نفسه عند نشوب الحرب العالمية الأولى ، في حاجة إلى جس نبض الحكومة البريطانية للوقوف على مدى استعدادها لمساعدته إذا نشب النزاع بينه وبين الدولة العثمانية ، وكانت الحكومة البريطانية ترى انضمامه إلى جانب الحلفاء في حال دخول تركيا إلى جانب ألمانيا .

على أنه ، من جانب آخر ، لما كانت مطامع الحسين تتجاوز حدود الحجاز إلى المشرق العربي ، فمن هنا حدث الالتقاء بين هذه المطامع وآمال القوميين العرب ، الذين رأوا في انحدار الحسين من عائلة ذات نفوذ ديني وعربي كبير ، الحل الوحيد لخلاف يمكن وقوعه على الزعامة بين سورى وعراقى أو فلسطينى .



وقد بدأت الثورة في دور التنفيذ حينما أرسلت جمعية « الفتاة » برسالة شفوية إلى الشريف حسين يحملها رسول ، يتلخص مضمونها في أن الزعماء القوميين في الشام والعراق ومنهم الضباط العرب في الجيش التركي ، يجذون القيام بثورة لتحقيق استقلال العرب ، ويعرضون عليه قيادتها . وسرعان ما أرسل الشريف حسين ابنه فيصل إلى دمشق لإجراء الاتصال بالزعماء العرب ، بعد أن ثبت له تأمر الحكومة العثمانية لاغتياله . وفي دمشق التي وصلها فيصل في مارس سنة ١٩١٥ ، اجتمع بالأعضاء البارزين في « جمعية الفتاة » كما اجتمع بأعضاء جمعية العهد ، المنظمة السرية لضباط الجيش ، وانتسب إلى الجمعيتين . وفي هذا اللقاء أعد الزعماء العرب بياناً بشروط التعاون مع بريطانيا ، التي عرفت ببروتوكول دمشق « وتقضى بالآتي :

أولاً : اعتراف بريطانيا باستقلال البلاد العربية الواقعة ضمن الحدود التالية :

شمالاً : خط مرسين - أضنة حتى درجة ٣٧ شمالاً . ومنها على امتداد خط بريجيك - أورفة - ماردين - مديات - جزيرة ابن عمر - عمادية حتى حدود فارس ، وشرقاً : الحدود الفارسية حتى خليج فارس ، وجنوباً : المحيط الهندي (خلا عدن التي تحافظ على وضعها الحالي) . وغرباً : البحر الأحمر والبحر المتوسط حتى مرسين .

ثانياً : عقد تحالف دفاعي بين بريطانيا العظمى والدولة العربية المستقلة .

ثالثاً : منح بريطانيا الأفضلية في الشؤون الاقتصادية .

وتتضمن هذه الأراضي : سوريا ، وفلسطين ، والعراق ، وجميع الجزيرة العربية ماعدا عدن .

وقد اتخذ الحسين هذه المطالب أساساً للمفاوضة مع بريطانيا في مراسلاته

المشهورة مع مكماهون ، المندوب السامي البريطاني في مصر . ولكنه اضطر ، تحت الرغبة في التحالف مع بريطانيا ، وتطرف أعمال الأتراك ضد القوميين العرب ، إلى التنازل عن ولايتي مرسين وأضنة ، ووافق على طلب بريطانيا استثناء بيروت وسواحلها (أى لبنان الصغير) التي لفرنسا مصالح فيها ، من نطاق الوحدة والاستقلال مؤقتاً ، على أن يعود إلى المطالبة بها حالما تنتهي الحرب . كما وافق على أن تقوم بريطانيا بإدارة ولايتي بغداد والبصرة خلال فترة الحرب نظير دفع مبلغ من المال لم يحده الطرفان . ثم وافق على أن تحترم الحكومة العربية المعاهدات التي كانت بريطانيا قد عقدتها سالفاً مع بعض الزعماء العرب (إمارة آل سعود ، إمارة الكويت ، وإمارة البحرين ومسقط وعمان ومشايخات حضرموت ولحج) ، وفي مقابل ذلك أبدى مكماهون استعداد حكومته للاعتراف باستقلال العرب ، وتأييد هذا الاستقلال في جميع الأقاليم التي اقترحها الشريف حسين مع مراعاة التعديلات التي قبلها الأخير ، وضمان حماية الأماكن المقدسة من أى اعتداء .

كان العرب في بادئ الأمر يضعون الخطط للقيام بالثورة في سوريا والحجاز في آن واحد ، ولكن التأخير في إعلان الثورة أدى إلى إتاحة الفرصة للأتراك لاعتقال معظم الزعماء القوميين ليعدموهم ، وإبعاد قادة الجيوش العرب إلى مناطق نائية لمنعهم ووحداتهم من الاشتراك في الثورة - الأمر الذي أدى إلى حرمان الثورة من عناصر جيش نظامي فعال وكبير نسبياً ، وإلى ضرورة الاعتماد على جيش الشريف حسين البدوي المؤلف من المرتزقة والمتطوعين .

وفي يوم ٥ يونيو ١٩١٦ أعلن الأميران على وفيصل في المدينة باسم أبيهما الشريف مكة استقلال العرب عن الحكم التركي . وفي يوم ١٠ يونيو أطلق الشريف حسين أول رصاصة على الأتراك في مكة معلناً قيام الثورة . وبدأ الهجوم في مكة على ثكنات ومواقع الحامية العثمانية . وفي مدى ثلاثة أشهر أخرى كانت الثورة قد استطاعت الاستيلاء على مدن الحجاز الكبرى ، باستثناء المدينة المنورة ، التي بقيت محاصرة حتى آخر الحرب .

وفي يوم ٢ نوفمبر سنة ١٩١٦ ، ودون أن ينتظر الحسين نهاية الحرب أعلن مبايعته ملكاً على الأمة العربية ، وقام بتنظيم حكومة في مكة ، وأسند رئاسة الوزراء إلى ابنه علي ، ووزارة الخارجية إلى عبد الله ، وبذلك أعطى الثورة صورة دولة ، بعد أن كانت في نظر الأتراك عملاً من أعمال العصيان ، وفي عين أعداء الأتراك عملاً من أعمال الثوار . ولكن إنجلترا وفرنسا اعترضتا ، ولم تعترفا بالحسين ملكاً إلا على الحجاز فقط في ٣ يناير سنة ١٩١٧ .

وفي شهر سبتمبر ١٩١٦ وصل عزيز المصري إلى الحجاز حيث عينه الشريف حسين وزيراً للحربية . وقد تمكن عزيز المصري خلال أشهر ثلاثة من إنشاء بضعة أفواج نظامية ، وخلق نواة جيش الثورة النظامي ، وكان يعاونه عدد من الضباط العرب ، أكثرهم من العراق ، ومنهم نوري السعيد ، ومولود مخلص ، وعلى جودت الأيوبي ، ورشيد المدفعي . ولكن لم يمض وقت طويل على عمل عزيز المصري ، حتى دب الخلاف بينه وبين الحسين ، فانتهى عمله بعد ثلاثة أشهر .

ولما كان على القيادة البريطانية دراسة نوع وحجم التعاون مع الثورة العربية ، ففي منتصف شهر أكتوبر وصل إلى جدة كل من « لورنس » ، « ورونالد ستورز » ، السكرتير الشرقي بدار المندوب السامي ، وقد بقي لورنس بعد عودة الأخير ، لدراسة الوضع في الحجاز ، وزار « رابغ » مع عزيز على المصري . حيث التقى بالأمير علي ، وتوجه إلى وادي الصفراء لمقابلة الأمير فيصل . وقد أسفرت نتيجة دراسته للموقف عن نصحه لحكومته بالتخلي نهائياً عن فكرة إرسال جنود إنجليز إلى الحجاز ، مع إمداد الشريف بالأسلحة اللازمة إذا أريد استمرار الثورة . وقد عاد لورنس إلى القاهرة ولكن ليعود مرة أخرى إلى الحجاز ، حيث أصبح مستشاراً للأمير فيصل وضابط اتصال بينه وبين السفارة البريطانية .

وفي الفترة من أكتوبر ١٩١٦ حتى ٢٤ يناير سنة ١٩١٧ (تاريخ سقوط

الوجه) شهدت الثورة أخرج فتراتهما . فقد كانت حامية الأتراك في المدينة تتألف من ٤٠٠٠ جندي مسلحة تسليحاً تاماً ، كما كانت هناك قوات كبيرة أخرى في محطات سكك حديد الحجاز على طول الطريق بين المدينة ومعان . وكان يقوم على حصار المدينة الأميران على وفيصل ، ولكن قوات فخرى باشا تمكنت من رد هجمات الأميرين ، ودفعت بالأول إلى « رابع » ، ودفعت الثاني إلى « ينبع البحر » ، وأخذت في التضييق عليهما ، وبدا زحف الأتراك على مكة أمراً محتملاً . ومع أن الحسين ألح على البريطانيين لإرسال التعزيزات والأسلحة ، فإن الحكومة البريطانية اعترضت على إرسال قوات ، تحت ذريعة الخوف من اتهام العالم الإسلامي لها ، خاصة الهند ، باحتلال الأماكن المقدسة .

على أن الانتصارات التي أحرزها الأمير عبد الله قائد الجيش الشرقي ، لم تلبث أن أنقذت الموقف . فقد بعث بقوات احتلت « حجر » شرقي « رابع » ، واتجه بقواته الأصلية ناحية الحنايكة ، وعبر سكة حديد الحجاز ما بين محطتي أبا النعم وهدية ، وظفر بقوة تركية « بالجرة » ، فتراجع فخر الدين باشا من « ينبع النخل » ومن وادي الصفراء ومن بئر سعيد إلى بير درويش ، وتراجع جناحه الأيمن الذي كان يعمل ضد الأمير فيصل من بيرقاضي وسطح الغاير وعبود ، إلى غدير مجز ومجزان وآبار على ، كما تراجع جناحه الأيسر الذي كان يعمل ضد الأمير على ، وبذا تحررت قوات الأمير فيصل ، واتجه شمالاً عن طريق الساحل إلى « الوجه » فاحتلها بدون مقاومة تذكر . وبذلك تحول الوضع العسكري في الحجاز تحولاً أساسياً لصالح الثورة ، وأصبحت القوات التركية في الحجاز محصورة داخل خطوط المدينة المنورة ، كما تهددت مواصلات الترك بين المدينة ودمشق تهديداً خطيراً ، وأقبلت القبائل على الانضمام إلى الجيش العربي .

وفي الفترة الثانية ، من سقوط « الوجه » إلى سقوط « العقبة » في يوليو ١٩١٧ ، اشتد حصار العرب للأتراك في المدينة ، وكثرت الإغارات على محطات سكة حديد الحجاز ونسف القضبان الحديدية وقطع أسلاك التلغراف ، وفي

الوقت نفسه أخذ فيصل ، بعد الاستيلاء على الوجه ، يستعد عسكرياً وسياسياً للزحف شمالاً إلى دمشق . وقد لعب « عودة أبو تاية » ، وهو زعيم إحدى عشائر قبيلة الحويطات المقيمة إلى الشرق من معان ، دوراً رئيسياً في هذا السبيل ، فقد ذهب في حملة صغيرة يقودها ناصر بن علي ورافقها لورنس ، وتمكن من تكوين جيش من المتطوعين زحف به على العقبة واستطاع الاستيلاء عليها في ٦ يوليو ١٩١٧ . ولم تلبث القوات النظامية في الجيش الشمالي أن انتقلت من الوجه إلى العقبة ابتداءً من أول شهر أغسطس . وفي أواخر الشهر انتقل فيصل بنفسه إلى العقبة واتخذها مقراً لقيادته ، وبذلك انتقل مسرح القتال إلى الشام .

وفي المرحلة التالية حدث التحول الآتي في جيش فيصل : فقد أصبح جيشاً من القوات النظامية إلى جانب القوات العشائرية ، وتوارت العناصر الحجازية ، وبذلك أصبحت قواته تتألف من سكان سوريا وفلسطين والعراق ، كما أصبحت جزءاً من جيش الحلفاء الزاحف على بلاد الشام بقيادة الجنرال ألنبي ، وانفصل عن قيادة الحجاز .

وكانت قوات ألنبي قد نجحت في دخول القدس يوم ٩ ديسمبر ١٩١٧ ، وعند نهاية العام كانت فلسطين تحت الاحتلال الإنجليزي ، ولكن ألنبي فشل في عبور الأردن والاتصال بقوات فيصل في شرقه ، في حين حصر فيصل نشاطه في منطقة معان واستطاع عزلها تماماً في ٢٠ من أبريل ١٩١٨ ، وأصبح جيشه يحمي الجناح الأيمن للجيش البريطاني في فلسطين ، ويحتجز أمامه نصف القوات التركية . وفي يوم ١٨ سبتمبر استطاع عزل درعا تماماً ، واحتل معان في يوم ٢٣ سبتمبر ، ثم احتل درعا يوم ٢٧ ، وتسابقت القوات العربية إلى دخول دمشق ، في حين كان ألنبي على المنطقة الساحلية يقوم بهجوم سريع خاطف . وفي مساء يوم ٣٠ سبتمبر وصل إلى مشارف دمشق الشريف ناصر ونوري شعلان ، ودخلت بعض القوات العربية غير النظامية دمشق لتجد العلم العربي ، علم ملك الحجاز ، يرفرف على بلدية دمشق ، وبذلك انتهى الحكم التركي . وفي

صباح اليوم التالي ، أول أكتوبر ١٩١٨ ، دخلت القوات العربية النظامية دمشق مع القوات المتحالفة . وفي يوم ٣ أكتوبر دخل فيصل دمشق ، وبذلك توجت الثورة العربية .

مراجع للاستشارة :

- ثورة العرب ، مقوماتها ، أسبابها ، نتائجها . بقلم أحد أعضاء الجمعيات السرية (القاهرة في مطبعة المقطم ١٩١٦) .
- جورج أنطونيوس : يقظة العرب ، تعريب على حيدر الركابي (دمشق ١٩٤٦) .
- زين نور الدين زين : نشوء القومية العربية (بيروت ١٩٦٨) .
- ساطع الحصرى : محاضرات في نشوء الفكرة القومية (القاهرة ١٩٥٥) .
- محمد شفيق غربال : العوامل التاريخية في بناء الأمة العربية (معهد الدراسات العربية ١٩٦١) .
- مذكرات الملك عبد الله (عمان ١٩٦٥) .
- Lawrence, T.E., Seven Pillars of Wisdom (Oxford, 1925) -